

مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقِ



الوهراني ورقعة

عَنْ مَسَاجِدِ دِمَشْقِ

مُحَمَّدُ بْنُ مَحْرُزِ بْنِ مُحَمَّدِ الْوَهْرَانِيِّ

(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تَحْقِيقُ

الدكتور صيَّاحُ الدِّينِ المُنْجِدِ

دمشق

١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



الوهراني ورقعة

عن مساجد دمشق

محمد بن محرز بن محمد الوهراني

(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

تمهيد

- ١ -

كان عصر نور الدين محمود بن زنكي (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) بداية العصر الذهبي الثاني في تاريخ دمشق . فبعد عصر الأمويين (٤٠ - ١٣٢ هـ) ، لم تشهد هذه المدينة حقبة أكثر ازدهاراً . ورخاءً ، وأشدّ قوّة ، وأحفل بالأمور الجسام والحوادث الكبار ، من عهد نور الدين والأيوبيين (٥٤٩ هـ - ٦٤٨) (١) .

في هذا العصر الذهبي الثاني كانت دمشق قبلة الأنظار تهوي إليها أفئدة الناس من كل حدب وصوب ، من المدن القريبة ، والبلدان القاصية . (٢) وقد استهوت الباب المقاربة والأندلسيتين خاصة فسارعوا إليها ، وقالوا : « إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » ، (٣) بل أوصوا بقصدها

(١) عن هذه الحقبة انظر كتابنا « دمشق في القرن السادس الهجري » والمصادر المذكورة فيه .

(٢) انظر مثلاً مقالتنا « دار الحديث العروبة بدمشق » ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٢٩ ، الجزء الثاني ؛ وجزء من الفوائد المنتقاة عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم (مخطوط في الظاهرية ، مجموع ٢٨ ، الرسالة الخامسة ، ورقة ٣٥٦) .

(٣) القول لابن جبير ، الرحلة ص ٢٣٥ (طبعة صادر ، بيروت ١٩٥٩) .

والسكنى فيها^(١). فزارها بعضهم زورة قصيرة تبرّكاً بها وبمشاهدها ، أو أخذاً للعلم عن علماءها . وحلا العيش فيها لآخرين منهم^٢ وطاب ، لما وجدوه من إنعام ، وإكرام ، وترحاب ، فأقاموا بها ، واتخذوها وطناً .^(٢) فممن هؤلاء المغاربة الذين رحلوا الى دمشق وأقاموا فيها محمد بن محرز بن محمد الوهراني^(٣) . كان أديباً صناعته الإنشاء . أقدم من ترجم له هو القاضي ابن خلكان قال عنه إنه « أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده الى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين — وفنّه الذي يمتّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجسد ، وسلك طريق الهزل ... »^(٤) .

فيُفهم من قوله أن الوهراني عدل عن طريق الجسد بعد أن لقي العماد والفاضل عند صلاح الدين بمصر .

وهاذا الكلام يحتاج الى تصحيح . فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين سلطاناً . لأنه كتب كثيراً من مقاماته الهزلية ورسائله في أيام نور الدين بدمشق كما سنرى . ولم يجتمع العماد والفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين .

(١) ابن جبير يقول : « فن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هاذه البلاد » الرحلة ، ص ٢٥٨ .

(٢) لزيادة التفصيل انظر كتابنا « دمشق في نظر المغاربة والاندلسيين » .

(٣) وهران بلدة معروفة في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤ : ١٩ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ؛ وقد تابع ابن خلكان على ما قاله كل من ترجم بعده للوهراني .

ثم إن مجيئه من بلاده الى الشرق لم يكن في أيام صلاح الدين ، بل كان أيام نور الدين . وقد وصفه في إحدى رسائله عندما سئل عنه وهو في بغداد ، فقال عنه « سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، ومملك مجاهد ، تساعده الأفلاك وتخدمه الجيوش والأملاك . » (١) وعجيب أن يخطيء ابن خلكان مثل هذا الخطأ ، والأمر واضح ، على تتبعه وشدة تحريه . وقد قبعه فيه الصفدي في « الوافي » (٢) فقال : « قدم من المغرب الى مصر وهو يدعي الانشاء فرأى الفاضل والعماد . . » والذي عرفناه عن سيرته ، بعد مطالعة آثاره المخطوطة ، خاصة أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به (٣) . وأنه مر بصقلية ، وزار بغداد . ثم اتخذ دمشق داراً واستوطنها . وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة ، فوجهت اليه خطابة مسجد دارياً . فبقي فيها . وقد زار مصر . ونرجح أنه زارها بعد وفاة نور الدين . وعاد الى دمشق ، وبقي في دارياً حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ ، أيام صلاح الدين . ودُفن على باب تربة أبي سليمان الداراني (٤) . وله رسالتان كتبهما الى صلاح الدين « يتوقع نظرة من سعوده ، أو درة من نجار وعوده » (٥) .

(١) الوهراني ، جليس كل ظريف (مخطوطة جامعة برنستون ، ورقة ٤٤ آ) ؛ وأبو شامة الروضتين ٥٨٤/٢ (ط حلبي) .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٨٦ (تحقيق دبدرنج) ؛ وانظر أيضاً مثل هذا القول عند الزركلي في الأعلام ٢٤١/٧ ، وكعالة في معجم المؤلفين ١٧٤/١١ .

(٣) يذكر الوهراني في « منامه » الكبير حادثة وقعت في دمشق لأحد من يذكرهم ، في دار الفوارة بجيرون ، في شهور سنة ٥٥٣ هـ .

(٤) ابن خلكان ، المصدر السابق . وعن داريا وأبي سليمان ارجع الى تاريخ داريا للخولاني .

(٥) جليس كل ظريف ، ورقة ٢٢٢ آ - ب .

استطاع الوهرائي أن يجذب القلوب اليه . فقد كان « ظريفاً خفيف الروح » ، وكان بارعاً في الهزل والسخرية . فصبَّ سخريته وتهكمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكُتَّابها كالنتاج الكندي ، والمهذب ابن النقاش ، والقاضي الفاضل ، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري ، والقاضي ابن أبي عصرون ، وغيرهم . ولم يسلم من لسانه وقلمه علماء مصر ورجالها أيضاً ، كالخبوشاني ، وابن ممتاي . فألَّف رسائل هزلية مختلفة . وابتدع فن المنامات الأدبية . وقد شُهر « منامه » الكبير « الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران » (١) ، و « جمع فيه أنواعاً من المزاح والأدب » (٢) . فتخيَّل أنه رأى في المنام كأن القيامة قامت . ومنادياً يُنادي : هلموا الى العرض على الله . فخرج من قبره حتى بلغ أرض المحشر . فلقي هناك كثيرين ممن عاصره وعرفه ، أو مات قبل . فسخر منهم جميعاً وذكر ما حوسبوا عليه .

وقد جمع في كتابه « جليس كل ظريف » الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية . (٣)

والذي يُطالع آثار الوهرائي هاذه تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزلي . كان لا يتورع عن السخرية بنفسه . متخيِّلاً ما يقوله أعداؤه عنه . وصف القاضي الفاضل فقال : « فلم أشعر إلاّ والحائط قد انشق » ، وخرج منه شخصٌ عجيب الصورة ، ليس له رأس ولا رقبه ، وإنما وجهه في صدره ، ولحيته في بطنه » (٤) ووصف مجلساً ضمَّ القاضي الشهرزوري ،

(١) الصفدي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٧ وقال : « لكنه أُلطف مقصداً وأعذب عبارة » .

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غير (بالعين المجمة) ٢٢٦/٤ (تحفيقنا) .

(٣) وفي دار الكتب المصرية مجموعة من رسائله أيضاً . انظر فهرس دار الكتب ١٦٢/٣ ؛ وبروكلمان ، الذيل الأول ص ٤٨٩ .

(٤) من رسالته الى مجد الدين ابن الطَّالِب . وتصوير الوهرائي هذا أبرع من هجاء ابن عنين للقاضي الفاضل وسخريته بجدته .

وابن النقّاش ، وابن العميد ، جرى فيه حديث المغاربة الذين يأتون من الغرب الى الشام ، ومنهم هو نفسه فقال :

« فيقول ابن العميد : ضيَّعتُ الوقت في حديث الوهراني ، والله إن مُلِّكُ المغرب نحس . ما جاءنا قطّ منهم إلاّ حارس كرم ، أو ناطور بستان [مع] الركوة والتاسومة ، وهذا الوهراني من بينهم ، شهد الله ، أثقل على القلوب من الغدّة الخارجة في الحلق ، وأوحش من الورم النافر في الأوداج . فيندفعُ حينئذٍ ابن النقّاش بفلسفته فيقول : اللهم العن الوهراني من الجهات الست ، اللهم العن ما يُقابل الوهراني من الأوج الى الحضيض . اللهم العن الهيمولي التي شاركت العناصر في تكوينه . والله ما أعرف في مقعر فلك القمر ، ولا على محدودب هذه الكرة الترابيّة شرّاً من ذلك الخبيث »

« فيقول أبوالمعالي ابن العميد بفصاحته : بالله عليكم اقعروا واقتعروا . . . ما للوهراني عرض يُثلّم ، ولا مجد يُهدّم . وهو دون كل ما ترموه (كذا) به ، وإن اشغالكم الوقت بحديثه يُضيع الزمان ، فإنه لا يصلح إلاّ لحلّ المشعّل ، أو لظنارة القنّيط . والمصيبةُ أنه مع هذا يتّمكّتب ويتمشعّم ، ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته . . . »

« ثم يشرع يجلو محاسن نفسه ، ويظهر فضيلته التي تقدّم بها على الأقران فيقول : يا غلام ! اغسل حلوقَ القوم من ذكر الوهراني بشيء من الكمثرى : العيملاني ، والسكّكري ، والعشّثاني ، والسمرقندي ، والخلاتي ، والعزّي ، والبيطاري ، والدينوّري ، والبردي ، والديجوري ، والخنافي ، والحمدوني ، والصفلابي ، والمعنقي ، والملكي ، والذهبي ، والرحبي ، وشيء من التفتح : البطيحي ، والبديدي (كذا) ، والبربري ، والنبطي ، والصيفي ، والخشخاشي ، والفضّي ، والحلوّاني ، والجنتابي ،

والقحايي ، والهامي ، والفتحي ، والحديثي ، والقبتليامي ، واللبناني . . . (١) .
« .. ثم يقعوا (كذا) في هاذا الوادي من الحديث ، فيشتغلوا (كذا)
عن ذكر وهران » .

« هاذا إن صدق ظن الخادم وتخيّله ، فالأمر يجري على هاذه الصورة » (٢) .
وكتب الى رجل اسمه قسيم الأعور رسالة ، كلها سخرية ، خاطبه فيها بقوله :
« يا مولاي الشيخ الزاهد ادبثوس الإسلام ، لت الشريعة ، قنطارية
العلماء ، باقوروت (كذا) الأئمة ، طبل باز السنّة ، نهر الله خاطرك . . . » (٣)
ووصف بعض ألقاظ قصيدة قالها التاج الكند ، في رسالة كتبها
ليه ، فقال :

« ... ألا ترى أنها لا ينطق بها اللسان حتى ينخلع منها الفك » ، مع
ما فيها من التدقّضرم (كذا) ، والرقاعة المعجونة بالتبظرم ، ولأجل ذلك
جاوبتها الألسن بأنواع من الض . . . (٤) .

وهاكذا نرى من النصوص التي سقناها أن الوهراني كان « صاحب
دعابة ومزاح » على حد قول الذهبي ، وأنه « ما سلم من شر لسانه أحد

(١) هذا التعداد لأصناف التفاح والكمثرى ذو شأن كبير لمعرفة ما كان يوجد منها
في دمشق أيام الأيوبيين . وما زال بعض هذه الأصناف موجوداً حتى يومنا . وقد
تعمدنا نقل النص لمرفتها وفي معجم الألقاظ الزراعية أن شجر الكمثرى اسمه
Poirier بالفرنسية وهو الصحيح . وهذا مدلول الكمثرى في مصر أما في الشام
فيسمونه إجاباً على حين أن الإجاب في اللغة هو ال Prunier بالفرنسية والبرقوق
في مصر .

(٢) جليس كل ظريف ، ورقة ٣٣ آ - ٣٥ ب ، من رسالته إلى الأمير شمس الدين
ابن الوزير البعلبي .

(٣) جليس كل أنيس ، ورقة ٣٧ ب ، والأسماء المذكورة كلها أسماء لضروب السلاح .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٧ ب .

من عاصره » ، على قول الصفدي . وأنه كان كاتباً في الهزل والسخرية
والتهمك ، مقبول الكلام خفيف الروح ، على ما عنده من لدغ وحادثة .
وهو ثاني اثنين سلّطها الله على أهل دمشق أيام الأيوبيين : ابن عُنَيْنٍ في
« مقراض الأعراض » شعراً ، وهو في « رسائله » و « منامه » نثراً .
ونعتقد أن السبب الذي دعاه الى اتباع هذا الطريق هو طلب المال .
فقد كان يسعى إلى جمعه . يحدثنا هو عن نفسه فيقول :

لما قَعَدْتُ رَتَّ مَآرِبِي ، واضطربت مغاربي ، أَلْقَيْتُ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي ،
وجعلتُ مذهبات الشعر بضاعتي ... فما مررتُ بِأَمِيرٍ إِلَّا حَلَلْتُ سَاحَتَهُ ،
واستمطرتُ راحته ، ولا بوزير إلا قرعتُ بابه وطلبتُ ثوابه ، ولا بقاضٍ
إلا أخذتُ سيّبه ، وأفرغتُ جَيْبَهُ ... (١) .

فهو يستمطر راحة الأمراء ، ويطلب ثواب الوزراء ، ويُنْفِرُغ
جيوب القضاة .

ولم يغمز الوهراني نور الدين إلا لأنه كان لا يُعْطِي الأديباء والشعراء
الأموال . فقد قال عنه : « عُرِفَ بِالْحُلِّ الْجَدِيبِ لِلشَّاعِرِ الأَدِيبِ . فما
يُرْزَى ولا يُعَزَى ، ولا لِشَاعِرٍ عنده من نعمة تُجَزَى » (٢) .

وكيف كان أمر الوهراني فيما ابتغاه من سخريته ، فإنه يكاد يكون
نسيج وحده في أدبنا العربي ، فيما كتب . وهو جدير بدراسات واسعة
تُكْتَبُ عنه . وآثاره المخطوطة ينبغي أن تُنشر .

(١) جليس كل ظريف ، ورقة ١ ب .

(٢) انظر الروضتين ٥٨٤/٢ (نشرة محمد حلمي) وقد أخطأ المحقق في ضبط اسم
الوهراني ، فجمله يحيى بن محمد !

أما الرقعة التي نشرها ، والتي مهدنا لها بما ذكرناه ، فهي من مضمونات كتابه « جليس كل ظريف » . وهو كتاب نادر حلو وجدناه في مجموعة يهودا المخطوطة ، بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأميركية ، وهو محفوظ فيها (برقم 665 ah. ١/) . ولم يعرف بروكلمن هذه المخطوطة .

وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلقة بتاريخ مدينتنا دمشق ، وخاصةً بتاريخ مساجدها . وخلصتها أن مساجد دمشق والضبياع التي من حولها أصابها في زمن نور الدين الخراب والضبياع . فاجتمعت هاذه المساجد ، ولجأت الى أميرها وسيدها جامع بني أمية . وكتب لها جامع النيرب قصة قدّموها اليه . ذكر فيها ما تلقاه المساجد من جور العمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . ثم تكلّم جامع المزة ، ثم مشهد برزة . فلما استمع مسجد دمشق الى الكلام أشار أن يكتبوا شكواهم الى قاضي القضاة أبي سعد بن عمرو . فقرأها وكتب على ظهرها هجاءً لمسجد دمشق . فغضب المسجد ، ورفع شكواهم مع شكواه الى الملك الزاهد نور الدين . فلما وقف نور الدين على ما كتبوا اهتم فأصلح أحوال المساجد . وعزل ابن عمرو .

هاذه خلاصة الرقعة . ومن الممكن أن يكون الوهراني قد كتبها لعلمه بحالة المساجد يومئذ ، وقد كان - كما مرّ بك - خطيباً في مسجد داريتا . ولعله كتبها ودسّها الى نور الدين نفسه ، فكانت بمرادها عنايته بإصلاح المساجد وتطهيرها مما ذكر أخباره أبو شامة وابن كثير وابن راصل ، وسبط ابن الجوزي ، وابن قاضي شهاب ، وغيرهم فقد تقدّم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد الخراب فأناف على مئة مسجد ، فأمر بهجارة

ذلك كله . وعيّن له وقوفاً . (١) ورأى جامع دمشق دائراً فأتى بالقاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي فولّاه قضاء قضاة دمشق ، وولّاه نظر الجامع فأصلح أموره . وكذلك وقف نور الدين عليه أوقافاً لتطعيمه . وذكر العماد الاصبهاني أنه عمر في سنة ٥٦٥ هـ جامع داريتا ، ومشهد أبي سليمان الداراني (٢) ، الى غير ذلك ، مما يدل على سوء حالة المساجد وصدق ما في الرقعة .

وتشير الرقعة أيضاً الى أن نور الدين عزل ابن عصرون بسبب إهماله المساجد . وابن عصرون هاذا هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون الموصلي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ . قدم الى دمشق لما فتحتها نور الدين سنة ٥٤٩ هـ فدرس بالغزالية وولي أوقاف المساجد ثم سافر الى حلب ، ثم عاد الى دمشق بعد وفاة نور الدين ، سنة ٥٧٥ هـ . وهو الذي تنسب اليه المدرستان العسرونيّتان بدمشق وحلب . (٣)

ولم يذكر ابن خلكان ، ولا ابن كثير ، ولا ابن العماد صاحب الشذرات ، سبب تركه نظر أوقاف المساجد ، وهذه الرقعة تفيدنا في معرفة السبب .

وها هوذا نصّ الرقعة :

(١) ابن واصل ، مفرّج الكرب ٢٨١/١ : ابو شامة ، الروضتين ١١/١ : سبط ابن الجوزي ، سرآة الزمان ٣١٢/٨ : البدر ابن قاضي شهبة انكواكب الدرّية (مخطوط) .

(٢) ابن كثير ، البداية ٢٦١/١٢ : النعمي ، الدارس ٤٣٢/٢ . الأول نقلًا عن العماد ، والثاني نقلًا عن البدر ابن قاضي شهبة .

(٣) ابن خلكان ، وفيّات ٢٥٦/٢ (ط . بحبي الدين عبد الحميد) : وانظر الدارس ٣٩٨/١ .

نسخة الرقعة التي رفعها المساجد

الى جامع دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا تَحَكَّمَتْ يَدُ الضِّيَاعِ فِي مَسَاجِدِ الضِّيَاعِ ، وَأُرْتَجَّ بَابُ
الْعَدْلِ وَأُغْلِقَ ، وَنُبَذَ كِتَابُ اللَّهِ وَخَلَقَ ، فَزَعَتِ الْمَسَاجِدُ إِلَى
جَامِعِ جَلَّقَ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرُهَا ، عَلَيْهِ مَدَارُ أُمُورِهَا . فَلَمَّا
وَصَلُوا إِلَى بَابِهِ ، وَاجْتَمَعُوا تَحْتَ قَبْتِهِ وَمَحْرَابِهِ ، كَتَبَ لَهُمْ جَامِعُ
النَّبِيرِ قِصَّةً إِلَيْهِ ، وَتَوَصَّلُوا إِلَى مَنْ عَرَضَهَا عَلَيْهِ . فَكَانَتْ
الرَّقْعَةُ مَسْطُورَةً عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ (١) .

« الْمَالِكُ مَسَاجِدُ الْكُورَةِ يُقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ
الْمَعْظَمِ ، الْبَدِيعِ الرَّفِيعِ الْمَكْرَمِ ، كَهْفِ الدِّينِ ، جَمَالِ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، بَيْتِ الْأَتْقِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، مَدْفِنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ،
مَعْبَدِ الْمَلَكِيِّينَ ، صَاحِبِ الدَوْلَتَيْنِ ، بُنْيَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعْلَى
اللَّهِ مَنَارِهِ ، وَأُتَيْدِ أَنْصَارِهِ ، وَعَمَّرَ بِالتَّوْحِيدِ أَقْطَارَهُ .

(١) انظر جليس كل ظريف ، ورقة ٥ ب - ٧ ب .

« وَيُنْهَوْنَ إِلَيْهِ مَا يُقَاسُونَهُ مِنْ جَوْرِ الْعَمَالِ ، وَتَضْيَعِ
الْأَعْمَالِ ، وَنَهَبِ الْوُقُوفِ ، وَخَرَابِ الْحَيْطَانِ وَالسَّقُوفِ .
قَدْ أَلْفَهُمُ الظُّلْمُ وَالظَّلَامُ ، وَأَنْكَرَهُمُ الْمُؤَذِّنُ وَالْإِمَامُ ،
فَلَا يُسْمَعُ فِيهِمْ إِلَّا أَذَانُ الْبُومِ ، وَتَسْبِيحُ الْغَيْومِ . قَدْ
رَكَعَتْ أَرْكَانُهَا ، وَسَجَدَتْ سَقُوفُهَا وَحَيْطَانُهَا ، تَبْكِي عَلَيْهَا
النَّوَاقِسُ ، وَتَرِثِي لَهَا الْبَيْعُ وَالْكَنَائِسُ .

« يَا وَيْحَ مَنْ يَرِثِي لَهُ الشَّامَتُ »

وقد فزَعْنَا ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِلَى بَابِكَ ، وَأَوْثِنَا تَحْتَ جَنَابِكَ ،
فَافْعَلْ بِنَا مَا هُوَ أَوْلَى بِكَ .

والسلام . »

فلما وقف على هذه الحكاية ، وفهم مقتضى الكناية ،
استوى جالساً في مقعده ، وضرب بيده على يده ، وقال :
كيف وأنى ، أم للإنسان ما تمنى ، ثم رفع رأسه وغنى :
« وَهَا شَرِبَ الْعُشَّاقُ إِلَّا بِقِيَّتِي
ولا وردوا في الحب إلا على وِردِي »

ثم أشرف على إيوانه ، بين حَفَدَتِهِ وَأَعْوَانِهِ ، وَأَقْبَلَ يُقَلِّبُ

طُرفه في الجموع ، ويكفكف انسراب الدموع ، لما يرى من
اختلالهم ، وفسادِ أحوالهم .

فابتدر جامع المزة للمقال ، فتقدّم بين يديّ الملك وقال :
« الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب ، وصيّر أموالنا كالسراب ،
وجعلنا مأوىً للبوم والغُراب .

« أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا ثُمَّ اسْتَعْنَى ، وَأَدْرِكَ بِمَالِ
الْوَقْفِ مَا تَمَنَّى . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَوَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، شَهَادَةَ عَالِمٍ عَامِلٍ ، مَتَحَمِّلٍ لِثِقَلِ الْأَمَانَةِ حَامِلٍ ، وَأَشْهَدُ
أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الصَّادِقُ الْأَمِينُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ ، الطَّيِّبِينَ الْأَكْرَمِينَ .

« أما بعدُ أيُّها الملكُ السعيد ، ثبّت اللهُ قواعد أركانك ،
وشيّد ما وَهَى من بنيانك ، فإنّ الخراب قد استولى على المساجد ،
حتى خَلَتْ من الراكع والساجد ، وأصبحت جوامع الغوطة
غيطان ، لا سقوفَ لها ولا حيطان . ومشاهدُ البقاع^(١) ، صَفْصَفًا
كالقاع ، ومساجدُ حورانٍ مخازن وأفران ، فكم بُنِيَتْ لعب

(١) يشير الى البقاع العزيري ، في لبنان اليوم . م (٢)

الجوزُ بأربابها ، ونَسَجَ العنكبوتُ على بابها ، وكم بيوت الله
غلقت دون أصحابها ، فَعَشَعَشَ الحمامُ في محرابها . ﴿ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي
خَرَابِهَا ﴾ ^(١) . وقد دُخِلَ آتِيهَا الملك على الوقوف ، بحجّة العمارة
والسقوف . فانفقت علينا الأهواء ، واختلفت فينا الامطارُ
والأنواء ، فلا يزال المسجدُ يَنهار ، وتأخذهُ السيولُ والأنهار ،
حتى يُمحيَ رسمُهُ ، ولا يبقى منه الا اسمُهُ . وأنت ،
أيها الملكُ ، عمادنا ، واليك بعد الله معادنا ، فالتفتِ الى حالنا ،
وأنظر في صلاح مآلنا ، يُصلح اللهُ أحوالك ، ويُسدّد في الخير
أقوالك وأفعالك . والسلام . » .

ثم جلس .

فقال الملك : هاؤلاء المساجد ، فما بالُ المشاهد ؟

فبرزَ مشهدُ برزّة متوكّئاً على مسجد الأرزّة ، وهو يُصلصلُ

ويصول ، ويلطمُ وجهه ويقول :

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١١٤ .

« كلما حاولتُ أشكو قصتي

لا الألقي غيرَ ذي قلبٍ جريح

يتشكى مثلَ شكوايَ له

يا لقومي ما عليها مستريح ! »

« أما بعدُ ، أيها الملك السعيد ، أدام الله جمالك ، وبلغك في
العدوِّ آمالك ، فإنَّ مقامَ ابراهيم أصبح في كلِّ وادٍ يهيم ،
ومغارةَ الدمِّ ، لا تستفيقُ من النِّمِّ ، ومسجدَ الكهف ، لا يفتر
من اللهف ، وقبرَ شيث ، قد استأصله الخبيث . وقبرَ نوحٍ ،
يبكي وينوح ، وقبرَ جيلة مالنا فيه حيلة ، وقبر الياس تعوضنا
عنه بالياس . وأمستِ المشاهدُ كأربابها ، وأصبحت رسماً
كأصحابها . قد محتها العوادي ، وحدا بها الحادي :

« جرتِ الرياحُ على رسومِ ديارهمْ

فكأنما كانوا على ميعادِ »

فقال الملكُ : ربَّ طارقٍ على غير وعد ، وفي كلِّ وادٍ

بنو سعد .

ثم تنحنح عجباً ، وحرك رأسه طرباً ، واستفتح المقال بأن قال :

« الحمدُ لله الذي لا يحمَدُ على المكروهِ سواه . نَصَبَ العدلَ
وسواه ، وأمدّه بعونه وقواه . فَمَنْ أَضَلَّ تَمَنَّ أَتْبَعَ هَوَاهُ
﴿ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهُ ﴾ (١) .

« أحمدُهُ على ما رزقني من الاحتمال ، وأشكرُهُ على ذهابِ
العِرْضِ والجاهِ والمال . وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، ونحوه لا شريك
له ، شهادةً مَنْ أعطى الأمانةَ حَقَّهَا ومُسْتَحَقَّهَا ، وأنَّ محمداً
سَيِّدُ الْآوَلِينَ وَالْآخِرِينَ رَسولُ اللهِ .

«أما بعد ، يا معشرَ المتكلمين ، وطائفةَ المساجد المتظلمين ،
فإنه والله ما يصلُ اليكم من الجورِ إلا ما يفضُلُ عني ، ولا ينتمِي
اليكم إلا ما يُستعار مني . ولولا أن أركانِي سليمة ، وبُنْتِي
قديمة ، لأصبح جامع بني أمية ، يغني : يا دار مية .

« وقد والله شرقتُ بغصتكم ، وحرثُ في قصتكم ، إن
رَفَعْتُ أَمْرَكُمْ إِلَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ (٢) ، رَدَّكُمْ إِلَى الشَّيْخِ الْعَالِمِ

(١) اقتباس من سورة الجاثية ، ٤٥ ، الآية ٢٣ .

(٢) يعني نور الدين .

العامل^(١) ، فلا يرعى لكم حرمة ، ولا يراقب فيكم إلا ولا ذمة ،

« شكوى الجريح إلى الغربان والرحم »

والرأي عندي أن تكتبوا للشيخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم
غصة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب ، فإن التأم
رأيه برأيكم ، وإلا فالسلطان من ورائكم .

« أقولُ قولي هاذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

فنادوا بالغلام ، فأتى بالدواة والأقلام ، فقال : استعذ بالله
من الشيطان الرجيم ، واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

« من ملك الجوامع بجيرون الى أبي سعد بن عَصْرُون^(٢) »

« لقد أسمعْتَ لو نادَيْتَ حَيًّا »

ولا كنْ لا حياةَ لمن مُتادي »

« أما بعدُ يا غدار ، فقد هيجتَ الألم ، وأبهمتَ الظلم ،
ومن استرعى الذيب فقد ظلم . طالما تغاضينا عن خياناتك ،
حتى اكتنزتَ الأموالَ وادخرتَها ، وجمعتَ الذخايرَ واعتزلتَها .

(١) يعني ابن أبي عَصْرُون .

(٢) كذا مشكولة في الأصل بضم العين .

أَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَتْ سِيَا حَتُّكَ ، وَبَسْبِيهِ كَانَتْ نِيَا حَتُّكَ ؟
وَلَا أَجْلَهُ كُنْتَ تَسِيحُ وَتَصِيحُ ؟ حَتَّى غَبَطَكَ الْمَسِيحُ . لَقَدْ
عَجِبْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ مَحَا لِكَ ، فِي ابْتِدَاءِ حَا لِكَ ، وَمِنْ
فَسَادِ أَمْرِكَ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِكَ ، صَلَّيْتُ بِالْمَسُوحِ وَالْقَيْدِ ،
حَتَّى ظَفَرْتُ بِأَنْوَاعِ الصَّيْدِ ، وَتَقَلَّدْتُ بِالْقُرُونِ وَالْعِظَامِ حَتَّى
تَقَلَّدْتُ الذَّبُوبَ (١) الْعِظَامِ . إِنْ كُنْتَ فِي هَذَا الْعَمَلِ ، إِلَّا كَمَا
قِيلَ فِي الْمَثَلِ :

« صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرٍ كَانَ يَأْمَلُهُ

حَتَّى حَوَاهُ ، فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا »

« فَعَرَّفَنِي ، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَفْتُونُ ، وَالْبَايَعِ الْمَغْبُونِ ، لِمَ بَعَثَ

الْبَاقِيَةَ بِالْفَانِيَةِ ، وَالْقَاصِيَةَ بِالْدَانِيَةِ ؟

إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ إِلَّا لَعَلَّةَ ، أَوْ لِتَحْقِيقِ مَلَّةَ ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ

اسْتَطَبْتَ السَّكْبَاجَ ، وَاسْتَلَنْتَ الدِّيَابِجَ ، وَإِمَّا أَنْ نَصَدَّقَ أَهْلَ

الْأَحْقَادِ ، فِي أَنَّكَ نَصَيْرِي فِي الْإِعْتِقَادِ . لَا تَقُولُ بِالنَّجْعَةِ ،

وَلَا تَصَدِّقُ بِالرَّجْعَةِ . وَكِلَاهُمَا أَنْتَ فِيهِ مَلُومٌ ، وَمُعَاقَبٌ

(١) فِي هَامِشِ الْأَصْلِ : خ « الْأُمُور » .

وَمَذْمُومٌ . وَحَسْبُكَ قَدْ بَلَغَنِي مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ قِلَّةِ الْوَفَا ، مَعَ هَذَاؤَلَاءِ
الضُّعْفَاءِ . فَأَحْسَمَ عَنْهُمْ أَذَاهُمْ ، وَلَا تُمْكِنُ مِنْهُمْ أَعْدَاهُمْ . وَالسَّلَامُ » .
فَلَمَّا وَصَلَتِ الرَّقْعَةُ إِلَيْهِ ، وَقَرَأَ مَا قَدْ انطَوَّتْ عَلَيْهِ ،
﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .
ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ^(١) وَشَتَمَ الْمَسَاجِدَ
وَبَانِيهَا ، وَلَعَنَ الْمَشَاهِدَ وَقَانِيهَا ، وَقَلَّبَ الرَّقْعَةَ وَكَتَبَ فِيهَا :
وَصَلَّتْ رَقْعَتُكَ ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، كَأَنَّهَا ضَرْبَةٌ مَوْتُورٌ ،
أَوْ نَفْثَةٌ مَصْدُورٌ ، تَخْلَطُ فِيهَا الْهَزْلُ بِالْجِدِّ ، وَتُبْدِي غَيْظَ
الْإِسِيرِ عَلَى الْقِدِّ . وَأَنْيَمَ اللَّهُ ، لَقَدْ فَرَّقْتَ بَرِيًّا وَقَذَفْتَ
سَرِيًّا ، وَجِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا . فَاشْدُدْ مِنْ عِقَالِكَ ، وَتَأَيَّدْ فِي
مَقَالِكَ ، فَمَا كُلُّ شَخْصٍ يُذَمُّ شَكْلَهُ ، وَلَا كُلُّ طَائِرٍ يَجُوزُ
أَكْلَهُ ، وَمَا كُلُّ بَيْضَةٍ شَحْمَةٌ ، وَلَا كُلُّ سُودَاءٍ فَحْمَةٌ . وَلَوْ
كَانَ لَكَ عَقْلٌ يَهْدِيكَ ، لَوَارَيْتَ أُورَاكَ ، وَلَسْتَرْتَ عُورَاكَ .
أَلَيْسَ قَدْ اشْتَهَرَ عِنْدَ الدَّانِي وَالْقَاصِي ، بِأَنَّكَ قَطْبُ الْمَعَاصِي ؟
حَتَّى لَقَبُوكَ : بِسُوقِ الْفُسُوقِ ، وَمِيدَانِ الْمُرْدَانِ ، وَرِحَابِ
الْقِحَابِ ، وَحَتَّى قَالَ فِيكَ الشَّاعِرُ :

(١) اقتباس من سورة المدثر ، ٧٥ ، الآيات ١٨ - ٢٢ .

« تَجَنَّبَ دَمَشَقَ وَلَا تَأْتِهَا
وَإِنْ رَاقَكَ الْجَامِعُ الْجَامِعُ
فَسُوقُ الْفُسُوقِ بِهِ قَائِمٌ
وَفَجْرُ الْفَجُورِ بِهِ طَالِعٌ »

لا جرم أن الله قطعك بالطريق ، وعاقبك بالحريق ،
وعذبك بالنيران ، وقرنك بشراً الجيران ، وجعل الميصر
على أبوابك ، والزط في قبلة محرابك . وجعل خطيبك أفوه
دايماً ، وإمامك أعمى ناقصاً . فلو أنك البيت المعمور لم تجرت ،
أو بيت مكة لما حجبت . فتوقف عند مقدارك ، وانظر في
إيرادك وإصدارك . والسلام .

فلما وقف الجامع على رقعته ، ورأى ما فيها من رقاعته ،
قام وقعد ، وأبرق وأرعد ، وقال : اكتب يا غلام :

« باسم الملك العلام

من العاتب الواجد ، إلى الملك الزاهد .

قال الحائط للوتد : لم تشقني ؟

قال : سل من يدقني .

أما بعد ، أيها الملك العادل ، أدام الله أيامك ، ونشر في

الخافقين أعلامك . فقد طاولت بعدلك القمرين ، وسرت سيرة
العمرين ، فإن الله شرف بُنيتي وحرّمها ، وطهر بُقعتي وكرّمها .
طالما زوحتُ بالمناكب لما كنتُ هينكلاً للكواكب .

وكم أمسيتُ مشكاةً للأنوار وبيتاً لعبدة النار .
ثم انتقلتُ الى اليهود بعد انقراضِ ملّةِ هود ، فتأنستُ
بالزبور ، وبالأنبياء في القبور .

ثم جاءتْ دولةُ الصليان ، فقربتُ بالقربان ، ومعاشرة الرهبان .
ثم جاء الإسلامُ ، فتشرّفتُ بدين سيّدنا محمد عليه أفضلُ
الصلاة والسلام .

فأنا المعظمُ في كل زمان ، والمقدّمُ في كل قران .
وكيف يسعك ، أيديك الله ، التغافل عن حالي ، والتحسين
لنهب أموالي ، ويدك مبدولة في البلاد ، ومتحكمة في رقاب
العباد ؟ وأيُّ شيء يكونُ جوابك يوم النشور ﴿ إذا بُعِثِرَ
ما في القبورِ ، وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ ﴾ (١) . وقد أوقفْتُكَ
موقفَ الذليل بين يدي الملكِ الجليل ، وأقولُ لك : أيُّ
ربُّ ! سلّ هذا لم أهملني ، وسلمني لمن أكلني ؟ فلا تردّ

(١) اقتباس من سورة العاديات ، ١٠٠ ، الآية ٨ ، ٩ .

جواباً ، ولا تحيرُ خطاباً ، ولا آخذُ منك ضميناً ولا كفيلاً ،
ولا أقبِلُ عنك شفيعاً ولا وكيلاً . فتقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَا ، لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا .
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾^(١) .

فَقَدَّمْ ، أيها الملك ، لِنَفْسِكَ ما تجده غداً في رَمْسِكَ .
وُخِذْ هاذِهِ التذكرة بالحساب ، قبل يوم الحِساب ، تبرأ من
التباعة ، وتدخل في أهل الشفاعة .

والسلام على مَنْ عَمَّرَ مساجدَ الاسلام ، ورحمة الله وبركاته .
فلما وقف نور الدين على كتابه ، وتجرَّع أليم عتابه ، التفت
إلى المساجد ، فرثى لهم ، وسدَّد أحوالهم ، وأسرها يوسف
في نفسه ، ولم يُبَدِّها لهم .

ثم نظر الى ابن عَصْرُونَ فَأَنْزَلَهُ واعتزله ، وحجبه عن بابه
واختزله ، وألقاه في سجن الصدود ، وخلده فيه الى يوم الخلود ،
وقرأ عليه : ﴿ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ كَفُورٌ ﴾^(٢) والسلام .

* * *

(١) اقتباس من سورة الفرقان ، ٢٥ ، الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٢) اقتباس من سورة هود ، ١١ ، الآية ٩٥ .

ملحق

عن الأماكن المذكورة في نصّ الرقعة

حسب ورودها

جامع جاتي : هو المسجد الأموي . أنظر عنه :
ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلد الثانية (تحقيقنا) ص ٥ وما بعدها
(دمشق ١٩٥٤ م) .

المنجد ، خطط دمشق ، ص ٥٥ (بيروت ، ١٩٤٩ م) .
مجهول ، ذكر ما استقرّ عليه الجامع إلى سنة ٧٣٠ هـ . (تحقيقنا) ،
دمشق ، ١٩٤٨ م .

النعمي ، الدارس (تحقيق الأمير جعفر الحسني) ٣٧١/٢ .
بدران ، منادمة الأطلال ، ص ٣٥٧ (نصرت بدمشق سنة ١٣٧٩ هـ على
نفقة الشيخ عليّ بن عبد الله آل ثاني . وهي طبعة سيئة جداً) .

جامع النيرب : النيرب قرب الربوة ، معروف . وهما نيربان . أنظر عنهما : ابن
طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . (تحقيق الأستاذ دهمان) .
و جامع النيرب وُصف بأنه كان حسناً تُقام فيه الجمعة . ثم خرب ،
في آخر العهد المملوكي ، وأخذت آلالته إلى عمارة تكيّة السلطان
سليمان ، سنة ٩٦٥ هـ . أنظر : النعمي ، الدارس ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ .
وذكر ابن عساكر مسجدين في النيرب . سُمي الأول : مسجد
في النيرب الأسفل . والثاني : مسجد النيرب من مساجد القرى (تاريخ
دمشق ، المجلد الثانية ص ٨٩ - ٩٠) .

جامع المزة : المزة قرية قرب دمشق معروفة . وكانت تسمى مزة كلب لتزول
قبائل كلب بها . أنظر : المنجد ، منازل القبائل العربية حول دمشق .
في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثلاثون . الجزء الأول :
وياقوت ، معجم البلدان ؛ وصفى زكريا ، الريف السوري ١٥٦/٢ ؛
محمد كرد علي ، غوطة دمشق .

ليس عندنا نصوص عن جامع للمزة الذي عناه الوهراني . وتوجد
نصوص عن جامع المزة الذي عمره الصفيّ بن شكر سنة ٦٢٢ هـ .
(الدارس ، ٤٣٢/٢) وجامع المرجاني بضواحي المزة (الدارس
٤٤٢/٢) .

- الغوطّة : غوطّة دمشق . معروفة . أنظر كتاب غوطّة دمشق .
البقاع : هي البقاع الزيزي . في لبنان اليوم . معروفة .
حورات : معروفة ، جنوب دمشق .
مشهد برزّة : برزّة قرية من غوطّة دمشق . معروفة . أنظر : غوطّة دمشق .
ومشهد برزّة هو الذي زعموا أنه مقام ابراهيم الخليل . أنظر :
المدوي ، الزيارات بدمشق ، ص ١٦ (تحقيقنا) .
مسجد أرزة : أرزة قرية كانت في عملة الشهداء ، على طريق الصالحية . دثرت
منذ زمن بعيد . لم يبق من آثارها إلاّ قبور الشهداء . أنظر :
المدوي ، الزيارات ص ١٥ ؛ ودهمان مقدمة القلائد الجوهريّة في
تاريخ الصالحية ، ص ١٨ ؛ وعلق في ص ٢٤٧ بقوله : « ومن
كلام العوام : ماين برزّة وأرزة أربعون ألف نبي » وفي قصيدة مصطفى
البكري التوسلية ، ورد :

ياربّ بالذات العليّة وبسرّ أسرار الهويّة

.

بالشام ثم ببرزّة مع أرزة والصالحية

مقام ابراهيم = مشهد برزّة .

مفاداة الدم : بجبل قاسيون . أنظر المدوي ، الزيارات ، ص ٥ ؛ والرئيس ،
فضائل دمشق (تحقيقنا) ص ٦٢ - ٦٧ .

- مسجد الكهف : هو كهف جبريل . بجبل قاسيون . أنظر الزيارات ص ٦ .
قبر شيث : في قرية نبي شيث تبعد نحو (١٥) كم شرقي زحلة (البقاع) .
قبر نوح : في قرية كرك نوح شرقي زحلة وبجوارها (البقاع) .
قبر الياس : في قرية قب لياس جنوب غربي شتورة (البقاع) .
جيرون : أنظر عنها ابن طولون ، قرّة العيون (تحقيقنا) ، وكتابتنا خطط دمشق .